○ ملحق رقم ١

مصحف عثمان فى الأندلس والمغرب

[انظر صفحة ٢٤، الهامش رقم ٣٧ من هذا الكتاب]

لم يكد الرسول صلوات الله عليه يلحق بالرفيق الأعلى حتى عادت جزيرة العرب تغزو نفسها، فارتدت بعض القبائل عن الإسلام، وامتنعت أخرى عن دفع الزكاة، وكان الخليفة أبو بكر شديد الصلابة وحاسما فى مواجهة هذه الفتن، وأصر على أن يعود الخارجون عن حظيرة الاسلام إليه بلا قيد ولا شرط، وإلا فالحرب معهم حتى النهاية، وكان خالد بن الوليد بطل تلك الحروب، واستطاعت قيادته الشجاعة والحكيمة أن تخضع بلاد العرب الوسطى وتكرهها على التسليم فى نحو ستة أشهر، أخضع أولا قبيلة طيئ، ثم قبيلتى أسد وغطفان، وكان طلحة قد أدعى النبوة فيهما، وأخضع بنى حنيفة فى اليمامة أخيرا، وتجمعوا تحت قيادة مسلمة نبيهم المزعوم، وقاوم أصلب مقاومة، وكان تحت أمرته فيما تذكر الروايات أربعين ألف رجل، واستطاع أن يحطم جيشين من جيوش المسلمين قبل أن يصل خالد على رأس جيش ثالث، حقق النصر، وهزم مسلمة، وكان الثمن الذى دفعه المسلمون عاليا، نحو ا من ألف شهيد، بينهم أربع مئة وخمسون صحابيا، جلهم من حفظة القرآن الكريم.

وبلغ الأمر عمر العظيم فهاله، واهتم له، ويروى البخارى بإسناده عن زيد بن ثابت، قال: «أرسل إلى أبو بكر، مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضى الله عنه: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر

يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك، ورأيت فى ذلك رأى عمر، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن. قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعنى، حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما. فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى، لم أجدها مع أحد غيره. ﴿لقد جاء كم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم﴾، حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر، رضى الله عنه».

ولم يقم زيد بن ثابت بهذا العمل وحده، عاونه فيه عمر، واختير زيد لأنه كان حافظا مثبتا، واعيا لما حفظ ، وحضر العرضة الأخيرة للقرآن، حين عرضه رسول الله على جبريل للمرة الثانية، فى السنة التى كانت فيها وفاته، واتبع فى تدوينه طريقة التحقيق العلمى، فى نهجه العصرى المألوف لدينا، ونفذ ذلك فى دقة، وجمع النص سورا من أجزاء متفرقة مكتوبة «على سعف النخيل، ولوحات من الحجر الأبيض، وصدور الرجال»، على حد تعبيره، ثم أودعت الصحف عند أبى بكر حياته، ثم عند عمر حياته، وانتهى بها المطاف عند حفصة أم المؤمنين، وبنت عمر ابن الخطاب.

* * *

وفى خلافة عثمان كثرت الفتوح، وانتشر القراء فى الأمصار، وقرأوا القرآن فى لهجاتهم على تعددها، وبدأت الفروق بين ما يقرأون وما ينبغى أن يكون تتسع شيئا فشيئا، وظهرت قراءات مختلفة للنسخ الشائعة، وكان السبب فيها نقص فى طبيعة الخط الكوفى، وأدّى ذلك الى تخطئة القارئين بعضهم بعضا، ويروى ابن الأثير فى تاريخه الكامل، فى أحداث عام ثلاثين للهجرة، أن حذيفة بن اليمان، ومعه سعيد بن العاص توجها إلى أذربيجان، فأقام سعيد حتى عاد حذيفة من بعض أسفاره، ثم رجعا إلى المدينة، وفى الطريق قال حذيفة لسعيد بن العاص :

«لقد رأيت فى سفرتى هذه أمرا، لئن تُرك الناس ليختلفن فى القرآن، ثم لا يقومون عليه أبد، قال: وما ذاك؟ قال رأيت أناسا من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد، ورأيت أهل دمشق يقولون: ان قراءتهم خير من قراءة غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك، وأنهم قرأوا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك، وأنهم قرأوا على أبى موسى، ويسمون مصحفه لباب القلوب، فلما وصلوا الى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك، وحذرهم ما يخاف، فوافقه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثير من التابعين، وقال له أصحاب ابن مسعود: ما تنكر؟ ألسنا نقرؤه على قراءة ابن مسعود؟، فغضب حذيفة ومن وافقه. وقالوا: إنّما أنتم أعراب فاسكتوا، فإنكم على خطأ. وقال حذيفة: والله إنْ عشت لآتين أمير المؤمنين، ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك، فأغلظ له ابن مسعود، فغضب سعيد وقام، وتفرق الناس، وغضب حذيفة وسار الى عثمان فأخبره بالذى رأى، وقال: أنا النذير العريان، فأدركوا الأمة، فجمع عثمان الصحابة، وأخبرهم الخبر فأعظموه، ورأوا جميعا ما رأى حذيفة، فأرسل عثمان الى حفصة بنت عمر: أن أرسلى الينا بالصحف ننسخها، وكانت هذه الصحف هى التى كتبت فى أيام أبى بكر.

وبناء على ذلك عين عثمان عام ٣١هـ = ٦٥١م لجنة برآسته، تتألف من: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ونسخوا تلك الصحف فى مصحف، مرتب السور، واقتصر فيه من بين جميع اللهجات على لهجة قريش، لنزول القرآن بلغتهم، تنفيذًا لإشارة الخليفة عثمان: «إذا اختلفتم فاكتبوا بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا». وحفظت النسخة الأصلية فى المدينة، وكتبت منها ثلاث نسخ أخرى أرسلت الى المعسكرات الحربية الثلاثة، فى: دمشق، والبصرة، والكوفة. وتضيف احدى الروايات ومصحفا رابعا أرسل الى مكة، وأمر عثمان بإحراق كل النسخ الأخرى، وارتضى عمله المسلمون جميعا، فى أيامه وبعدها، إلا ما قيل من أن ابن مسعود عارض فى إحراق مصحفه، وفى عمل عثمان، وأمر الناس فى الكوفة بالتمسك

بمصحفه، ثم تخلى عن رأيه فيما بعد، اقتناعا أو نزولا على رأى الجماعة، وبذلك ضبط القرآن، كتاب الله ، ودستور المسلمين ، أبد الدهر.

* * *

كان عمر العظيم قد حجز على أعلام قريش من المهاجرين، فلا يخرجون من المدينة للبلدان الأخرى إلا باذن ولأجل، ويخاف على الأمة من انتشارهم فى البلاد، وإن الرجل ليستأذنه فى الغزو، وهو ممن حُبس فى المدينة من المهاجرين، ولم يكن يفعل ذلك بغيرهم من أهل مكة، فيقول له : قد كان لك من غزوك مع رسول الله صلى الله عليه ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك، وكان عامة المسلمين على أيامه لا يعرفون الاختلاف، لأن دواعيه مفقودة، وعمر القوى الشديد يقف بالمختلفين من الخاصة عند الحد الذى لا ينبغى لهم أن يتجاوزوه. ويقول الشعبى : لم يمت عمر حتى ملته قريش.

فلما كان عثمان خلَّى بينهم فاضطربوا فى البلاد، وانقطع إليهم الناس، واتخذوا أموالا فى الأنصار ، ووقع الاختلاف، وبدأت الفتنة تطل برأسها، وفشت القالة فى عمال عثمان، واضطرب الأمر بين يدى خليفة الله، واختلط الخير بالشر، وتشاور مع صحبه، فنصحوه بالشدة، وآثر اللين والمواتاة والمتابعة إلا فى حدود الله، وعرض عليه معاوية أن يسير معه الى الشام فأبى أن يبيع جوار رسول الله بشئ ، وإنْ كان فيه مصرعه، وعرض أن يرسل إليه جندًا يقيمون معه بالمدينة للمحافظة عليه فرفض ، حتى لا يضايق جيران رسول الله، وأهل دار الهجرة والنصرة، فى أرزاقهم بجند يساكنهم، «والله إن رحا الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان أن مات ولم يحركها، كفكفوا الناس، وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وان تنوسيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها».

وتفجرت الفتنة، وقدم الثائرون من الأمصار الى المدينة، فى جماعات كثيرة، تريد باطلا وترفع راية الحق، تبغى الشرور وتتحدث عن الخير، تستهدف الدنيا وتتخفى وراء الدين، وحاصرت الخليفة الوقور المسن الطيب فى داره، تريده أن يخلع نفسه من الخلافة، ثم منعوه من الصلاة فى المسجد، واستمر الحصار واشتد

حتى منعوه الماء، فلا يصل إليه شيء منه إلا خفية، ويطل عليهم عثمان من حين لاخر يعظهم فلا تؤثر فيهم الموعظة، وخاف المحاصرون أن تفشل خطتهم، فعجلوا بالجريمة، أحرقوا أبواب الدار، وتسوّروها من دار أخرى مجاورة، ولما رأى عثمان ذلك منهم، والذين حوله قلة ، ويريدون الدفاع عنه، استسلم لقضاء الله، وأمر من معه أن ينصرفوا لأنهم لايغنون عنه شيئا، واقتحمت عليه جماعة من الثائرين بيته، وهو يقرأ فى سورة البقرة من مصحفه، فاعتدوا عليه، وضربوا عنقه، وانتهبوا ما فى بيته، واستولوا على بيت مال المسلمين، ولحقت روح الخليفة الطيب بربه لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة عام ٣٥ هـ = ١٧ يونية ٦٥٦م، ولم يصرح الثائرون بدفنه، وورى جثمانه خفية وفى صعوبة، خرجوا به بعد المغرب، ولم يشيع جنازته إلا نفر قليل، وصلى عليه جبير بن مطعم.

قتل عثمان اذن وهو يتلو القرآن مطمئنا فى النسخة الوحيدة من المصحف التى كانت فى المدينة، عندما أمر بتوحيد المصحف وحرق ما عداه، وأرسل بالنسخ الأخرى إلى الأمصار الأربعة التى أشرنا اليها من قبل، وأضفى حادث الاغتيال البشع، والملابسات التى أحاطت به، أهمية خاصة على نسخة عثمان هذه، وبدأت الروايات تتناثر حولها، تكثر وتعظم وتبالغ، وفيها قليل من الحق، وكثير من الخيال الخصيب، وبدأت تتنازعها المساجد الكبرى على امتداد العالم الإسلامى.

وأول من تحدث عن هذه المصاحف المشرقية من الأندلسيين **أبو القاسم التجيبى السبتى**، فهو يذكر أنه عاين بنفسه عام ٦٥٧ هـ = ١٢٥٨م، المصحف الشامى بمقصورة جامع بنى أمية بدمشق المحروسة، وأنه رأى أيضا المصحف المكى بقبة اليهودية وهى قبة التراب، وبعده بحوالى مئة عام تقريبا جاء الرحالة المغربى **ابن بطوطة** إلى المشرق، وزار دمشق، وأكد ما رآه أبو القاسم فى مسجد بنى أمية، ويقدم عنه معلومات أكثر تفصيلا، يتحدث عن المقصورة العظمى من المسجد فيذكر، «فى الركن الشرقى منها، إزاء المحراب، خزانة كبيرة، فيها المصحف الكبير الذى وجهه أمير المؤمنين **عثمان بن عفان**، رضى الله عنه الى الشام، وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة، فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم، وهناك يحلّف الناس غرماءهم، ومن ادعوا عليه شيئا».

ويحدثنا ابن بطوطة أيضا أنه زار البصرة ورأى مسجدها، ووصفه، وذكر أن «فيه المصحف الكريم الذى كان عثمان رضى الله عنه يقرأ فيه لما قتل، وأثر تغيير الدم فى الورقة التى فيها قوله تعالى: ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾، وكان ابن سعد فى تاريخه الطبقات الكبرى قد روى أن الدم حين ساح على صفحة المصحف وقف عند هذه الآية ولم يتجاوزها. وصمت ابن بطوطة تماما عن مصحفى الكوفة ومكة، غير ان ابن مرزوق التلمسانى الأصل، الأندلسى الاقامة، وكان معاصرًا لابن بطوطة، زار مكة ودمشق ورأى مصحفيهما ويضيف أيضا أنه رأى كذلك مصحف المدينة، وقرأ فيها كلها، وكان هذا عام ٧٣٥ هـ = ١٣٣٤م.

واذن فلدينا أخبار عن مصاحف مكة والمدينة والبصرة ودمشق حتى القرن الثامن الهجرى، الرابع عشر الميلادى.

أما مصحف الكوفة، فلم تقع عينى على من تحدث عنه، وثمة أمر لافت للنظر، وهو أن المقرى التلمسانى، صاحب كتاب نفح الطيب، وتوفى فى القاهرة عام ١٠٣٨ هـ = ١٦٣٢م، وحج الى مكة، وزار المدينة، وأقام بدمشق زمنا، لم يحدثنا عن هذه المصاحف، ولو وجدت على أيامه لكان بها حفيا، ولما تردد فى الإشارة إليها، أترى العثمانيون نقلوها فيما نقلوا من تراث العالم العربى بعد استيلائهم على مصر؟ ، ربما.

* * *

كان الأندلس بحكم بعده عن مركز الإسلام فى المشرق، وإحاطة الأعداء به من كل جانب، وكثرة المحن التى تعاورته، شديد الحرص على أن يأخذ بحظه من هذا الشرف، فكان له مصحف من بين تلك المصاحف التى أمر الخليفة عثمان بنسخها، وكان فى الأندلس فى نفس الوقت الذى كانت فيه المصاحف الأربعة الأخرى، أو الخمسة، مستقرة فى أمكنتها، وكما كان عليه الحال فى دمشق صنعوا به هنا، فاختاروا له مكانا فى المنبر، عليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت، وأغشية من الديباج، وصنعوا له كرسيا يوضع عليه، من خشب العود الرطب، ومساميره من ذهب، وبالغوا فأضافوا انه مصحف عثمان نفسه، ومضوا مع المبالغة الى نهايتها، فزعموا: «إنه مما خطه بيمينه».

ووجه المبالغة هنا واضح لا يحتاج دفعه إلى فضل بيان، لأن عثمان رضى الله عنه أمر بجمع المصحف، وكون لجنة برآسته للقيام بهذه المهمة، ولكنه لم يسهم فيه كاتبا، وينفى ابن بشكوال المؤرخ الأندلسى، على نحو غير مباشر أنه مصحف عثمان، فيصرح: «وما قيل ان فيه دم عثمان هو بعيد، وان يكن أحدها فلعله الشامى». والحق أن المصحف الشامى الأول أيضا ليس عليه دم عثمان بداهة، لأنه أرسل إليها فى حياته، إلا أذا أراد أن معاوية استجلب فيما بعد مصحف عثمان نفسه، ليتخذ منه سلاحا سياسيا يثير به أهل الشام، كما استخدم بعض مخلفات أخرى، وهو ظن يضعفه أن أحدا من المؤرخين لم يشر الى هذا، وليس سهلا على أهل المدينة وفيهم كبار الصحابة أن يتخلوا عنه لأحد، وأخيرا فإن الرحالة الذين تحدثوا عن مصحف دمشق تحدثوا أيضا عن مصحف المدينة، على نحو ما أشرنا فيما سبق.

متى وصل هذا المصحف إلى الأندلس؟ وكيف؟ وعلى يد من؟، وفى أى تاريخ استقر فى المسجد الجامع؟ لا أحد يدرى. وأول خبر نلتقى به عن هذا المصحف نجده عند مؤرخى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى، ويشير إليه المقرى فى أكثر من مكان من موسوعته نفح الطيب، بمناسبة الحديث عن مسجد قرطبة الجامع، ويشير إلى مصادره أحيانا، ويهملها أحيانا أخرى.

ويقول ابن مرزوق، وهو آخر من كتبوا عن المصحف الأندلسى، بعد أن نقل عنها، أنه اختبر المصحف الذى بالمدينة، والذى نقل من الأندلس فألفى خطهما سواء.

كان المصحف الأندلسى، المنسوب إلى عثمان، موجودا فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى، لا شك فى هذا، وأرجح أن بدء وصوله كان فى عهد عبد الرحمن الأوسط، وتولى الإمارة بين عامى ٨٢٢ و ٨٥٢م ، فهو أول أمير أندلسى انفتح على المشرق، واحتذى خطاه، وأرسل فى طلب الكتب والعلماء والفنانين منه، فلا يبعد أن يكون الوراقون، وما أمهرهم، وأقدرهم على التقليد، قد صنعوا له هذا المصحف، أحكموا رسمه، وأجادوا التقليد فيه، ونسبوه إلى عثمان، وقبضوا ثمنه عاليا، ولكى تصبح القصة محبوكة، والمصحف

مميزا، والثمن الذى يدفع فيه قليلا مهما يكن، أجروا على صفحة منه، فى الآية من السورة التى ذكرت كتب التاريخ أن الخليفة الشهيد كان يتلوها، دما أحمر، وزعموا أنه دم عثمان.

ومثل هذا التزييف يحدث كثيرا فى القديم، وعلى أيامنا هذه، وفى أشكال متنوعة، تتناول المخطوطات، والعملة، والآثار والتحف الفنية وغيرها، ولا يتأتى لأحد أن يتبين زيفها، الا قلة من الخبراء المتخصصين.

وبقى المصحف الأندلسى فى المسجد الجامع بقرطبة، ولمكانته فى القلوب لم تستطع الفتن العاتية التى اجتاحت عاصمة الخلافة فى الغرب على يد البربر، وأتت على المدينة تدميرا وتخريبا وحرقا، أن تمتد إلى المسجد العظيم أو إلى ما بداخله، رغم أنها دمرت مدينتى الزهراء والزاهرة، وبقى فيها طوال عصر الطوائف، لأن قرطبة كانت عاصمة إمارة بدءا، ثم جزءا من مملكة إشبيلية فى أعوامها الأخيرة، ولم يمسه المرابطون، لأنهم كانوا أقرب إلى السلفية والبساطة، فلم يعيروا مثل هذا الأمر اهتماما، أو على الأقل لم يصلنا فى مدونات التاريخ ما يومىء إلى اهتمامهم به، إلى جانب عزوفهم عن قرطبة بما فيها، واتخاذهم إشبيلية عاصمة لهم.

حتى إذا جاء الموحدون بدأ الأمر يأخذ وجهة أخرى.

* * *

كان القرطبيون يجلون هذا المصحف كثيرا فيما يبدو، ولذلك حرص ابن بشكوال المؤرخ الأندلسى على أن يحدد لنا اليوم الذى نقل فيه من المسجد الجامع فى قرطبة إلى مراكش فى المغرب، وأن ذلك تم ليلة السبت حادى عشر شوال سنة اثنتين وخمس مئة، (= ١١٥٧ م) فى أيام أمير المؤمنين عبد الواحد بن على، وبأمر منه. وفى تلك الأيام كانت قرطبة قد تدهورت تماما، وتحولت إلى مدينة إقليمية لا يكاد يحس بها أحد، حزينة القلب، كسيرة النفس، تعيش على ذكريات أمجاد الخلافة فحسب، فلم تقاوم، واستسلمت مغلوبة على ما لو حدث قبل ذلك بقرن لكانت دونه دماء وأهوال.

وقد خص الرحالة المغربى ابن رشيد المصحف برسالة أدبية ضافية، أتى عليها

كاملة المقرى فى نفح الطيب، وأقامها على معلومات استقاها من الوزير أبى زكريا يحيى بن أحمد، عن كتاب لجده أبى بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل، الفيلسوف الأندلسى الشهير، ورغم أن الرسالة كتبت فى سجع متكلف تقدم لنا معلومات هامة، فنحن نعرف منها:

أن الذى حمل المصحف من قرطبة هما السيدان الأميران أبو سعيد وأبو يعقوب، وأن أمير الموحدين عبد المؤمن بن على فكر فى الأمير طويلا، قبل ذلك بزمن، ولكنه خشى ثورة أهل قرطبة عليه، فتوقف عن الأمر. ونفهم منها أن هناك من أراد أن يدخل السرور عليه، فتحدث فى الأمر إلى أهل قرطبة، وربما احتال عليهم، فخضعوا للأمر، وأذعنوا للرغبة، وقدم المصحف لأمير المؤمنين هدية، فكان سروره به عظيما، وعد من كراماته بين مريديه وأتباعه.

وأنهم «أخذوا فى اختيار حليته، وتأنقوا فى استعمال أحفظته، وبالغوا فى استجادة أصونته، فحشروا له الصناع المتقنين، والمهرة المتفنين، ممن كان بحضرتهم العلية، أو سائر بلادهم القريبة والقصية، فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة، ومهرة كل طائفة، من المهندسين، والصواغين، والنظامين، والحلائين، والنقاشين، والمرصعين، والنجارين، والزواقين، والرسامين، والمجلدين، وعرفاء البنائين، ولم يبق من يوصف ببراعة، أو ينسب إلى الحذق فى صناعة، إلا أحضر للعمل فيه، والاشتغال بمعنى من معانيه، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة، وأشكال مبتدعة، وضمنوها من غرائب الحركات، وخفى إمداد الأسباب للمسببات، ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم، واستفرغوا فيه جهد قوتهم».

و «أنه كسى كله بصوان من الذهب والفضة، ذى صنائع غريبة من ظاهره وباطنه، لا يشبه بعضها بعضا، قد أجرى فيه من ألوان الزجاج الرومى ما لم يعهد له فى العصر الأول مثال، ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال، وله مفاصل تجتمع إليها أجزاؤه وتلتئم، وتتناسق عندها عجائبه وتنتظم»، «ونظم على صفحته وجوانبه من فاخر الياقوت، ونفيس الدر، وعظيم الزمرد، ما لم تزل الملوك السالفة، والقرون الخالية، تتنافس فى أفراده، وتتوارثه على مرور الزمن وترداده، وتظن العز الأقعس، والملك الأنفس، فى إدخاره وإعداده». و «كسى المصحف

العزيز بصوان لطيف من السندس الأخضر، ذى حلية خفيفة تلازمه فى المغيب والمحضر».

«وصنع له محمل غريب الصنعة، بديع الشكل والصيغة، ذو مفاصل ينبو عن دقتها الإدراك، ويشتد بها الارتباط بين المفصلين ويصح الاشتراك، مغشى كله بضروب من الترصيع، وفنون من النقش البديع، فى قطع من الأبنوس والخشب الرفيع، لم تعمل قط فى زمن الأزمان»، «وصنع لذلك المحمل كرسى يحمله عند الانتقال، ويشاركه فى أكثر الأحوال، مرصع مثل ترصيعه الغريب، ومشاكل له فى جودة التقسيم وحسن الترتيب، وصنع لذلك كله تابوت يحتوى عليه احتواء المشكاة على أنوارها، والصدور على محفوظ أفكارها، مكعب الشكل سام فى الطول، حسن الجملة والتفصيل، بالغ ما شاء من التتميم فى أوصاله والتكميل، جار مجرى المحمل فى التزيين والتجميل. وله فى أحد غواربه باب ركبت عليه دفتان قد أحكم إرتاجهما، ويسر بعد الإبهام انفراجهما».

«وذلك أن بأسفل هاتين الدفتين فيصلا فيه موضع قد أعد له مفتاح لطيف يدخل فيه، فإذا أدخل ذلك المفتاح فيه، وأديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين إلى داخل الدفتين من تلقائهما، وخرج الكرسى ذاته بما عليه إلى أقصى غايته، وفى خلال خروج الكرسى يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركته، يأتى بها من مؤخر الكرسى زحفا إلى مقدمه. فإذا كمل الكرسى بالخروج، وكمل المحمل بالتقدم عليه، انغلق الباب برجوع الدفتين إلى موضعهما من تلقائهما دون أن يمسهما أحد، وترتبت هذه الحركات الأربع على حركة المفتاح فقط، دون تكلف شىء آخر. فإذا أدير المفتاح إلى خلف الجهة التى أدير إليها أولا انفتح الباب، وأخذ الكرسى فى الدخول، والمحمل فى التأخر عن مقدم إلى مؤخره، فإذا عاد كل إلى مكانه انسد الباب بالدفتين أيضا من تلقائه، كل ذلك يترتب على حركة المفتاح، كالذى كان فى حال خروجه، وصحت هذه الحركات اللطيفة على أسباب ومسببات غائبة عن الحس، فى باطن الكرسى، وهى مما يدق وصفها، ويصعب ذكرها».

وكان الموحدون «يحملونه بين أيديهم أنى توجهوا، على ناقة حمراء عليها من

الحلى النفيس، وثياب من الديباج الأخضر يجعلونه عليها، وعن يمينه ويساره عصيان[١]. عليهما لواءان أخضران، وموضع الأسنة منهما شبه تفاحتين، وخلف الناقة بغل محلى أيضا، عليه مصحف آخر، يقال أنه بخط ابن تومرت، دون مصحف عثمان فى الجرم، محلى بفضة مموهة بالذهب، وهذا كله بين يدى الخليفة منهم»[٢].

ولم يزل الموحدون يحملونه فى أسفارهم متبركين به، إلى أن حمله المعتضد، السعيد على بن المأمون أبى العلاء إدريس بن المنصور، حين توجه إلى تلمسان آخر سنة ٦٤٥ هـ - ١٢٤٧ م، فقتل قريبا من تلمسان، وتقدم ابنه ابراهيم فقتل أيضا، ووقع النهب فى الخزائن، واستولت القبائل العربية وغيرها على معظم العسكر، ونهب المصحف، ولم يعلم مستقره، ولكنه سوف يظهر فيما بعد فى خزانة المرينيين.

فلما قامت الدولة المرينية على أنقاض دولة الموحدين، واقتحم أميرهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق عاصمتهم مدينة مراكش، يوم عاشوراء سنة ٦٦٨ هـ ٩ سبتمبر ١٢٦٩ م، انتقلت ملكية المصحف إليهم فى ظروف غير واضحة تماما، ويذكر المقرى أن المصحف ظل فى خزانة ملوك تلمسان، إلى إن افتتحها أبو الحسن المرينى، على بن عثمان بن أبى يعقوب، أواخر شهر رمضان سنة ٧٣٧ هـ - ١٣٣٦ م فظفر به، والحق أن المرينيين بعامة، وأبا الحسن من بينهم بخاصة، كانوا يولون المظاهر الدينية التى تكسبهم عند رعاياهم شعبية وقدرا أهمية خاصة، حتى أن السلطان أبا الحسن (١٣٣١ - ١٣٤٨ م)، كان شديد التعلق بالحرمين الشريفين، وأهدى الحرم الملكى فى موسم الحج لسنة ٧٣٨ هـ - ١٣٣٨ م، مصحفا سنيا، خطه بيمنه، متقن الورق، مهذب الصنعة، صنع له وعاء مزخرفا من آبنوس، مطعما بالعاج والصندل، مغشى بصفائح من ذهب، مرصعة بالجواهر وأنواع الدر والياقوت، واتخذوا له أصونة الجلد المحكمة، مرقومة بخطوط ذهبية يعلوها غلاف من الحرير والديباج الرفيع، وبعث مع وفد الحاج عددا وافرا من

---

(١) كذا فى الأصل وصوابه «عصوان».

(٢) عبد الواحد المراكشى، المعجب فى أخبار المغرب، تحقيق سعيد العريان، الطبعة الأولى، ص٢٥٣.

المال لشراء ضياع وحقول بالمشرق، وتحبيسها على الفقراء هناك، وكان لا يسافر إلا ومعه المصحف العثمانى.

ولعب المرينيون دورا رائعا فى دعم مملكة غرناطة الضعيفة بالأندلس، وقفوا إلى جوارها فى أحلك ساعاتها، وانتخذوا من شواطئها، مالقة والمرية والجزيرة الخضراء، قواعد لأسطولهم، وكتب لهم النصر مجتمعين فى مواقع كثيرة على ملوك قشتالة وأنصارهم، ولكن الدائرة كانت عليهم فى موقعة طريف، التى نشبت عام ٧٤١ هـ - ١٣٤٠ م، رغم أنهم استخدموا اختراعا جديدا يسمى «الأنفاط»، وهو نوع من المدافع تقذف بالنيران، وارتكب القشتاليون وحلفاؤهم كل المنكرات فى المعسكر الاسلامى، وغنموا ما فيه، ومن بين ذلك علمان لبنى مرين، لا تزال كنيسة طليطلة الجامعة تحتفظ بهما حتى يومنا هذا، وخسر المسلمون مصحف عثمان، استولى عليه البرتغاليون، وكانوا يقاتلون إلى جانب الجيش القشتالى، وتشاءم أبو الحسن كثيرا من هذا، وأعمل الحيلة فى استخلاصه، إلى أن رده إليه أحد التجار، مقابل مبلغ كبير من المال دون شك، ووصل إلى فاس عام ٧٤٥ هـ - ١٣٤٤ م، أى بعد أربع سنوات من المعركة فقط، واستمر بقاؤه فى خزانة المرينيين.

○ ملحق رقم ٢

مسجد قرطبة
فى الشعر الألمانى

[انظر ص ٣٤ الهامش رقم ٥٤ من هذا الكتاب]

ولو أن الوصف الذى قدمه المؤلف لمسجد قرطبة الجامع كامل ودقيق، إلا أننى لم أستطع دفع رغبة قوية تلح على، فى أن أنقل ترجمة لوصف آخر جاء شعرا ونظمه ألمانى آخر، وهو دكتور فشتنراته، ولم يكن أقل غراما بآثار أسبانيا، وجاءت قصيدته على النحو التالى :

عبد الرحمن الداخل والملاك

فى منية الرصافة،
عتبة الجنة على الأرض،
كان ينام عبد الرحمن العظيم،
ابن مروان بن معاوية،
صقر قريش الأبيض،
هاربا من بنى العباس،
يبحث عن ملاذ ومأوى،
وبعيدا عن دمشق وجد مملكة وعرشا.

●

آونة يمد سلطانه،
عبر إسبانيا كلها،
الموتى يرحلون شهداء،
والأحياء يعيشون مرابطين،
وآونة يتأمل نخلاته،
وحيدا مفكرا،
وتثير النخلة فى أعماقه،
ذكريات غالية وحلوة.

●

ومن خلال بريق صاف غريب،
ظهر له كائن عجيب،
يرتدى الضوء والمجد،
إنه الملاك إبليس،
رفض أن يسجد لآدم أول الأنبياء،
شامخًا لم يحن رأسه أبدا،
ولهذا طرد من السماء،
عقابا له على تكبره.

●

ظهر أمام الأمير،
وعلى النحو التالى تحدث إليه :
لا تتذكر النخلة، أجمل ما فى مسقط رأسك،
عندما ترى كم هى عالية،
اجعل غاياتك أشد ارتفاعا.
تيجان كل ملوك القوط أصبحت لك،
منذ «أتأولفو» حتى «لذريق»،

وكلها من الماس والياقوت.

●

عناية الله يا سيدى تتجه إليك،
والأعين مثبتة فيك،
سيفك البتار
قلدك أياه النبى،
الأرض الأندلسية لك،
يحتضنها البحر واليواقيت،
والمرجان الذى تحبه الشمس،
وهو أسير جمالها.

●

وصنعت فى هذه الأرض الجميلة
ملكا قويا وعملاقا،
وأقمت مسجدا عظيما،
يرضى الله وجدير بك،
وغطى على المسجد الأقصى فى القدس،
وأنساه الناس،
وفى داخل محرابه الجميل،
يطمئن آمنا مصحف عثمان.

●

منه تنكسف الكعبة،
وفيه آلاف الحجاج
يعبدون الله طائعين،
فى قرطبة وليس فى مكة.
يهديهم نجمك الساطع،

يجيئون من مصر وفارس،
تظلهم أشجار الليمون الوارفة،
وينعمون بمياه النهر والنوافير.

●

وفى هدى الرسول الأعظم،
رمز النصر والانتصار،
شيدت مسجدك الجامع،
فوق كنيسة المسيح،
وقبلها كانت معبدا رومانيا،
ثم تراجعت الهيبة الإيطالية،
وتقهقرت أعمدة اليشب،
والتيجان الكورنثية[1].

●

ويدخل المؤمنون من أحد عشر بابا،
تنفتح على أحد عشر طريقا،
تقودهم إلى إحدى عشرة بلاطة،
ليؤدوا صلواتهم تقاة خاشعين.
وزادت هذه البلاطات فأصبحت،
ثلاثة وثلاثين. وفى متاهة من
ألف عمود أو يزيد،
يضل الفكر، ويذهل العقل.

●

وتبرق الألف سارية،

---

(١) انظر الهامش رقم٢ ص من هذا الكتاب.

مثل الغوارب الصلبة،
لألف من الرماح القوية،
يحملها «الزناتيون» من جندك.
حدوة البراق،
الذى حمل الرسول والإمبراطورية،
تربط بين الأعمدة،
تمسك البناء وتشد من أزره.

●

العقود الهيفاء تشبه
حركة الموج المجعدة،
حين تدفعها الرياح،
أو تهز راياتك التى لا تقهر.
وعقد يتصل بآخر،
تشع منها الألوان الزاهية والزخارف الثرية،
كقوس قزح حين تبدعه الشمس،
وتصنع منه أقواسا عديدة.

●

لتحذير المؤمنين من هجوم مباغت،
فان الأسوار، والشرفات التى عليها،
تحيط بالمسجد الجامع،
وتجعل منه حصنا.
وعلى أن أدعو الذين حولك والجنيات،
كى يساعدنك، ويقطفن الزهور من جنانك الإلهية،
التى أعارت القيشانى والزخارف العربية المتشابكة،
والمحراب والقبة الرشيقة،

بهاءها ورونقها وبريقها.

●

نوافير الساحة الصافية،
وأشجار البرتقال الزاهرة،
تنادى الطيور المغردة،
كى تترنم بأغاريدها العذبة،
وتملأ بفيض من الروعة والبهاء
داخل المسجد الناضح بالأسرار،
وتملأ جوه الطرى
بأريجها الشذى، وتضفى عليه تناسقا.

●

أنت، اذن، يا عبد الرحمن الشريف
تحقق الروعة المعجزة،
وتسترد الحماسة الفتية.
وما توجك الجامع من مجد،
يبقى خالدًا عبر الزمن،
وثوابك عليه الحوريات العين،
خالدات: حياة وإشراقًا.

●

هكذا قال. وبلا تردد
أنجز عبد الرحمن ما طلب،
وامتلأت قرطبة كلها،
بالنشاط والحركة والضجيج والبهجة،
والمهندسين والعمال،

تجمعوا فى أعداد حافلة،
وارتفع المسجد عاليًا،
وشق عنان السماء مجيدًا خالدًا.

●

وينهض شيخ وقور،
أبيض اللحية، كث الشعر،
ذو عمامة بيضاء ناصعة،
فى لحظة معينة من كل يوم،
وكأشد العمال نشاطًا،
يحزم أمره ويشمر عن ساعده،
ويعمل فى البناء.

●

وعندما أتى الموت المحتوم،
وأنهى خيط الحياة فى أعماقه،
كان المسجد الجامع الرائع،
يوشك أن يبلغ من البنيان غايته،
ومعذرة لإبليس،
وجاء يبحث عن الأمير،
ومضيا معاً،
كلاهما عبر عتبة الجنة على الأرض.

(خوان باليرا)

○ ملحق رقم ٣

حفائر مدينة الزهراء

● كتب هذا التقرير عالم قرطبة الكبير السنيور روفائيل كستيخون، وقدمه لمؤتمر الدراسات العربية والإسلامية الذى عقد فى مدينة رفللو بإيطاليا، بإشراف المعهد الجامعى للدراسات الشرقية فى نابولى، فى شهر سبتمبر من عام ١٩٦٦ ونشر فيما بعد فى المجلد الذى تضمن الأبحاث التى ألقيت فى المؤتمر بعنوان :

Atti del congresso di Studi arabi e islamici, Naboli, 1967.

[انظر ص٤٨ الهامش رقم٨٢ من هذا الكتاب]

مدينة الزهراء أنشأها خليفة قرطبة عبد الرحمن الناصر عام ٣٢٥ هـ - ٩٣٦ م، والتهمتها الحرائق عام ٤٠١ هـ - ١٠١٠ م، وكانت موضع الثناء والإطراء من المؤرخين العرب[١]، وتستأهل أن تكون موضع البحث والدراسة، وفعلا بدأ الحفر للكشف عنها فى القرن الماضى، أو على التحديد عام ١٨٥٤[٢]، ولكن هذه الحفريات ما لبثت أن توقفت.

وفى عام ١٩١٠ بدأت الدولة الأسبانية الحفريات من جديد على نحو منتظم حتى يومنا، مع فترات توقف منطقية، ولكن العمل فى هذه الأعوام الأخيرة بلغ قدرًا عاليًا من التكثيف والتحمس، وثمة دراسات خاصة اضطلعت بتسجيل هذه الأعمال إلى جانب المذكرات الرسمية التى تضطلع بنشرها الهيئات الرسمية المختصة[٣].

(١) روساريو كستيخون، مدينة الزهراء فى كتب المؤلفين العرب، مجلة الملك، المجلد الثانى، ١٩٦١.

(٢) روفائيل كستيخون، المئة عام الأولى من حفريات مدينة الزهراء، مجلة أكاديمية قرطبة الملكية، رقم ٧١، ١٩٥٤.

(٣) المجلس الأعلى للحفريات والآثار، الحفريات فى مدينة الزهراء، تأليف ريكادو بلاثكيث، ١٩٢٣. الحفريات فى مدينة الزهراء، من عمل المجلس المدبر، وقام بكتابته : خينيث، ود. كستيخون، وف. هرناندیث، وا. رويث، وح. تبسكويس ١٩٢٤. وحفريات مدينة الزهراء لعام ١٩٢٦، وقام بها د. خينيث، ود. كستيخون وف. هرناندیث وحفريات الخطة القومية فى مدينة الزهراء حملة عام ١٩٤٣، وحررها رفائيل كستيخون عام ١٩٤٥.

وكان دون ريكادو بلاثكيث بوسكو أول من اضطلع بهذه الحفريات عام ١٩١٠، وكان يشغل فى الوقت نفسه منصب مدير مدرسة الهندسة المعمارية فى مدريد، ومشرفًا على المسجد الجامع فى قرطبة، وظل يوجه هذه الأعمال حتى وفاته عام ١٩٢٣، وشملت مناطق متوازية من الشمال إلى الجنوب، لتحديد امتداد هذا العمل العظيم، وكشف ملامحه الرئيسية. وفى عام ١٩١٢ نشر كتابًا جميلاً تضمن النتائج الأولى المدهشة لهذه الحفريات، وقبيل وفاته بقليل كتب دراسة نشرت بعد وفاته بعام، أى فى ١٩٢٤[٤].

وكانت النتائج الأكثر يقينًا لهذه الحفريات الأولى، فيما نرى، أنها ألقت الضوء وأزاحت الأنقاض بعامة عن الأجزاء الهامة من المدينة، مثل قصر الخلافة فى الجانب الأعلى من المبانى، والمجلس الغربى، فضلا عن أبنية أخرى أقل أهمية، وتحدد نهائيًا الأسلوب العام الذى كان متبعا فى زخرفة مدينة الزهراء، بفضل الكميات الهائلة من الألواح المزخرفة، من بقايا المبانى التى أشرنا إليها. وفيما يتصل بالقيشانى كشفت الحفائر عن مجموعة كبيرة منه للغاية، وتسمح لنا بأن نشير إلى ثلاثة أنواع منه: المذهب، وذو البريق المعدنى، ونلتقى به أبيض مزخرفا للمرة الأولى فى هذا العصر، وربما كان إرثا لتقليد بيزنطى تأصل بين السكان الأصليين، وهو غنى بالزخارف إلى حد كبير، والقيشانى العادى، وهو من طراز مختلف.

ثم توالت الحفائر منذ عام ١٩٢٤ بإشراف لجنة تضم عناصر محلية، تتكون من هيئة الآثار، وأضيف إليها مدير متحف الآثار المحلى، ومهندس البلدية، واتخذوا لهم هدفًا علميًا محددًا، يتمثل فى تحديد اتساع المدينة بدقة، وهو ما تحقق فعلا، بعد أعمال متواصلة ومركزة من جانب اللجنة المشار إليها. وهكذا أزاحت اللجنة الستار عن المخطط العام للمدينة[٥].

وسمح هذا إلى جانب عوامل أخرى كثيرة، بينها ما هو إدارى الطابع، كالاستيلاء على الأرض نهائيًا وبدئ به منذ عام ١٩١٤، بتحديد أمكنة الأبنية الرئيسية التى تحتويها المدينة، وتبدو بقاياها فى أرض لا تكاد تتحرك، لأن العقار

(٤) ريكادو بلاثكيث، مدينتا الزهراء والعامرية، مدريد، ١٩١٢، جمعية نشر الدراسات والبحوث العلمية.

(٥) رفائيل كستيخون، مخطط مدينة الزهراء، فى مجلة أكاديمية التاريخ فى قرطبة ١٩٢٥، رقم ١١، ص ١١٧.

حيث أقيمت الزهراء مرعى فى مرج دائم، وبالتالى فهو قليل، أو معدوم، الحركة الزراعية.

وعلى العكس، كان لقربه من العاصمة القرطبية، وهو على مسافة خمس كيلو مترات تقريبًا منها، أثر آخر، فقد استغل القرطبيون هذا الحقل من الأطلال، فى كل العصور، بحثًا عن مواد البناء الغنية، وبخاصة الأعمدة وتيجانها، أو بحثًا عن أشياء أكثر أهمية يؤملون فى العثور عليها، كاستخراج الصالح من أحجار الجير الجيدة، وبها بنيت مدينة الزهراء.

ومنذ أن اكتشف هذا المخطط أصبح توزيع مبانى مدينة الزهراء معروفا فى خطوطه العامة، والأسوار التى كانت تحيط بالمدينة فى صورة تقريبية، وموقع القاعات، أو القصور الرئيسية، ومسجد المدينة بخاصة، وهو المبنى الوحيد فى المدينة الذى أخذ شكلا دينيًا، ويجب أن نوضح أن التصوير الجغرافى الجوى لم يقدم فائدة كبيرة فى هذا المجال، لازدهار الخضرة فطريا هناك، ولو أن المرء يستطيع من أعلى قمم الجبال القريبة منها أن يشير إلى هذه الأمكنة، محددًا موقعها من الأرض.

ويمكن تقسيم حفريات هذه اللجنة إلى فترتين رئيسيتين: الأولى منذ اختيارها حتى بدء الحرب الأهلية الأسبانية، أى منذ عام ١٩٢٤ إلى ١٩٣٦، والتى شملت العمل قرابة ثمانية أعوام، والفترة الثانية منذ عام ١٩٤٤ حتى الآن.

وقد أوجز رفائيل كستيخون فى تقرير رسمى نشره عام ١٩٤٥[٦] الأعمال التى تمت فى الفترة الأولى، وفى نيته أنه يملأ هذه الفجوة، وأن يسجل فى تقرير آخر مفصل الحفريات التى تمت حتى عام ١٩٦٤ م.

فى المرحلة الأولى، واستهدفت خطة لها تنظيف المنطقة بعامة، بدءا من أية نقطة، وكانت خلف «المجلس الغربى» وأتاحت الفرصة لتحديد السور العام المحيط بالمدينة، ويأتى بعده نحو الغرب بمبانيه الملحقة، مما سمح باكتشاف طريقة

---

(٦) أنظر الهامش رقم ٣، وأيضًا مجلة «الملك»، الآثار العربية فى قرطبة: مدينة الزهراء، ١٩٥٩، المجلد ١، ص ١٤٥ وما بعدها.

المنحدرات، أو الاتصال بين المستويات المختلفة، وبيتين كبيرين توأمين، نظن أنهما سكن الحاجب أو رئيس الوزراء فى لغتنا المعاصرة، وبيت آخر أعلى مستوى، ولكنه فى الخط نفسه، وأظنه سكن صاحب الشرطة، إلى أن نصل إلى قصر الخلافة نفسه، والذى اكتشف أخيرًا، وتحددت معالمه.

وتميز العقد الذى بدأ بعام ١٩٣٠ بعمليات الترميم، على مهل وفى خوف بدءا، لا ختلاف الآراء حول القضية، ولكن الواقع فرض نفسه وبخاصة لأن الزهراء بنيت فى سفح الجبل، واختفت باستغلال الجانب الأكبر من أحجار الأسوار الضخمة فى بناء قنطرة متدرجة، وفضلا عن تعقد المشكلة بسبب ليونة الأرض التى تحدثها الأمطار، فلم يكن بد من ترميم الشرفات، وردها إلى أصلها الذى كانت عليه، وبهذا تحقق، على الأقل، ترميم أسس المدينة[٧].

وبعد أن توقفت الأعمال بسبب الحرب الأهلية، عادت من جديد عام ١٩٤٤، وحققت نتائج باهرة فى زمن محدود، باكتشافها قاعة من سبع بلاطات مزخرفة فى ثراء بالغ، وسبق لى أن لفت النظر إليها فى مجلة الأندلس[٨]، ودرسها فيما بعد أساتذة فن المعمار العربى[٩]، ودعوتها «قاعة عبد الرحمن الناصر»، لوفرة النقوش التى تتحدث عن أول خليفة أندلسى. والتواريخ التى ترد فى هذه النقوش تقف بين عامى ٣٤١، و٣٤٥ هـ، مما يجعلنا نظن أن بناءها استمر خمس سنوات.

وهذه القاعة، ويدعوها غومث مورينو «غنية»[١٠]، لثراء زخارفها، حددنا موقعها من خلال الروايات التاريخية والوصفية[١١]، وفى ضوء ما يدعى فى غموض

---

(٧) فى تاريخ حفريات مدينة الزهراء العريض كان هناك منطقيًا أكثر من رأى حول الترميم، ثم أصبح ضروريًا للأسباب التى أشرت إليها فى النص، وفيما بعد بدا أن من الضرورى الأخذ بالرأى الذى يدعو إلى الترميم المتعقل، على الأقل فى المبانى الرئيسية، وفى المخطط العام.

(٨) رفائيل كستيخون، حفريات جديدة فى مدينة الزهراء، قاعة عبد الرحمن الناصر، الأندلس، مدريد ١٩٤٥، المجلد ١٠، العدد ١.

(٩) غومث مورينو، الفن العربى الأسبانى حتى عصر الموحدين، الجزء الثالث، من سلسلة «الفنون الاسبانية» ص ٦٣، مدريد ١٩٥١. طريس بلباس، الفن الأسبانى الاسلامى حتى سقوط الخلافة القرطبية فصلة من المجلد الخامس من تاريخ أسبانيا بتوجيه مينندیث بيدال، مدريد ١٩٥٢.

(١٠) فى المصدر السابق، فى الهامش رقم ٩.

(١١) روساريو كستيخون، المصدر السابق، فى الهامش رقم ١.

«دار الملك» لأنها تستخدم مأوى للشخصيات الملكية، و«دار الوزير» لأن مجلس الوزراء كان ينعقد فيها فى الأحوال العادية.

وقد شغلت أعمال الحفر التى أدت إلى اكتشاف «قاعة عبد الرحمن الناصر»، إلى جانب المبانى الملحقة، وترميمها، الفترة ما بين عامى ١٩٤٤ و١٩٦٣. وتتمثل ملحقات هذه القاعة فى سلسلة من المبانى نحو الشرق، بدءا منها نفسها، وتشمل حمامًا بالغ الروعة والفخامة، ومصلى صغيرًا، وعددًا من الغرف أو الساحات، وكلها فى الصف نفسه، وهى بالتأكيد للكتاب أو المستخدمين.

وهذا الصف من الملحقات، وقاعة عبد الرحمن الناصر الكبرى نفسها، تطل على باب فخيم فى الجنوب، فوق شريحة مرتفعة، تكون كل الواجهة الشمالية تقريبًا من الشرفة الكبرى الجنوبية، وسوف نعرض لها فيما بعد.

وتقسيم قاعة عبد الرحمن الناصر العظمى، وتتكون من خمس بلاطات يجرى على النحو التالى: ثلاث بلاطات فى الوسط، ذات أعمدة مصطفة غير منتظمة، مثل ما عليه الحال فى مسجد قرطبة الجامع وتأتى ألوان سيقانها بالتناوب: وردية الرخام من قبرة، أو زرقاء اللون من قرطبة، وقواعدها وتيجانها غنية بالزخارف، وسلسلة من العقود ذات جمال زخر فى بالغ الروعة، ويجىء بناؤها على التوالى: طوبة حمراء، وحجر مزخرف، طبقًا لأسلوب فن الخلافة القرطبية التقليدى.

وبلاطها ألواح عريضة من الرخام الأبيض، وسقفها مبطن بالخشب، ويشبه أيضًا ما عليه الحال فى المسجد الجامع فى العاصمة ومن المنطقى ألا نجد أى لوح من الخشب، ولا أية رافدة من خشب السقف، ولكننا وجدنا بين أكوام الأنقاض كثيرًا من الأخشاب المحروقة ومسامير من الحديد ترك صدؤها أثرًه فى رخام البلاط.

والبلاطتان اللتان فى أقصى الجانبين، على نحو ما فى قاعة المجلس الغربى، يمكن عزلهما عن البلاطات الثلاث التى فى الوسط بالباب الوحيد الذى يوجد فى وسط الجدار الفاصل، أى أنه يوجد فى هذه القاعة الغربية الأخرى ثلاثة أبواب فى كل جانب تسد البلاطة المتطرفة. وفى هذه التى نصفها فإن عمق البلاطتين

الجانبيتين يمكن أن يغلق، فتأخذ شكل مربع تقريبًا، تعلوه قبة من الحجر، مجموعة أحجارها لا تزال سليمة فى جانب كبير منها، وما فى باطن العقد مدهون باللون الأحمر مع زخارف تأخذ شكل خطوط متعرجة، وصلتنا منها بعض البقايا.

والأقسام الداخلية من البلاطتين الجانبيتين مخصصة، فى حالة الضرورة، لتكون غرفًا للشخصيات الكبيرة، وهى مشهورة لا بالقبة التى تعلوها فحسب، وإنما أيضًا بالمرافق المبسطة فى كل منها.

ونعيد القول من جديد بأن الثراء فى زخارف العقود بالغ الروعة وبخاصة عقود أبواب الدخول أو الموصلة، والجانب الأكبر منها عقود محددة، وذات زخارف متنوعة، والبلاطات الثلاث الوسطى تضم فى مدخلها بهواً، أو بلاطة مستطيلة كمعبر، وتضفى عليها فخامة منقطعة النظير، والبلاطة الوسطى، فى نطاق هذا البهو، منفصلة بثلاثة صفوف من العقود، والبلاطتان الجانبيتان بصفين. والبلاطات التى فى الأطراف تنفتح على غرف يفصلها باب من الخشب، والواجهة الرئيسية فى هذا البهو تطل خلال صف من الأعمدة، تلاشى الآن، على مدخل عام جنوبى.

وموضوعات الزخرفة مما هو تقليدى فى عصر الخلافة القرطبية، فهى تتكون من توريقات، أو موضوعات زهرية إن شئت، مُستمدة من العالم الكلاسيكى ومن العالم المشرقى على السواء. وتنهض زخارف الجدران على قاعدة من المربعات الكبرى تمثل شجرة الحياة، وتبدو بين أغصانها الزهور والثمار، ذات طابع رمزى تقريبًا، وكل مربع مع آخر يكونان جانبى الأبواب، أو النوافذ، أو الخزائن، وتتواصل فيما بينها حتى تغطى الجانب الأسفل من الجدران. وعندما اكتشفت هذه القاعة عام ١٩٤٤، كان عمق البلاطة الجانبية، الأكثر امتداد نحو الغرب، بين البلاطات الوسطى، كاملا تقريبًا فى مربعاته، مما أتاح لنا فرصة تصور النظام العام للزخارف فى المدينة.

ومما يسترعى الاهتمام عمدان الأبواب المربعة، التى تصل بين البلاطات الوسطى وما على جانبيها، لأنها منحوتة من الرخام فى روعة، وتومئ اليمنى منها

إلى إشارات تطعيمها بالجواهر، وعنها تحدث ابن خلكان[١٢]، وكل واحدة فيها صفان من هذه النقوش، الأعلى منها يتضمن مدح الخليفة وما تحته يشير إلى أسماء ثلاثة من النحاتين اشتغلوا فى هذه القاعة، ويبلغ عددها اثنى عشر صفا بين هذه الأعمدة الأربعة.

ومنذ اكتشاف هذه القاعة الملكية حتى كتابة هذا التقرير، لم تتوقف أعمال الترميم فيها، ويقوم عليها المهندس هرنانديث خمينيث، وشملت كل البلاطات باستثناء بهو المدخل، وحتى هذه اللحظة، فرمم كثيرًا من الأعمدة الزخرفية، مستخدمًا العديد من القطع التى ظهرت بين الأنقاض، وأحجار العقود، وكلها ذات جمال آخاذ.

ومن الضرورى أن نأخذ فى الاعتبار أن إعادة بناء السقف تمت إجمالا، فى نطاق خطة، ويتكون من دعائم وألواح من الخشب، على نحو ما عليه الحال فى مسجد قرطبة الجامع، ولكن هنا على نحو نهائى، أما هناك، كما يجب أن نذكر، فإن السقف ظل ناقصا. لعدم وجود نماذج من الدعائم الصغيرة التى تغلق بطانة السقف فى استطالتها.

ومع هذه الترميمات اتضحت القطع المجاورة، مثل الملحقات التى يتحدث عنها المؤرخون[١٣]، وتم تنظيف البركة الكبرى التى كانت أمام القاعة، وبعض الأشياء الأخرى الصغيرة.

وفى عام ١٩٦٤ تلقت حفائر مدينة الزهراء دفعة قوية من الدولة، فقد رفعت إدارة الفنون الجميلة الميزانية السنوية، المقررة لها منذ عام ١٩٥٤، من أربع مئة ألف بيزيته إلى مليونين من البيزتات، وحصلت على مساحة واسعة من الأرض تبلغ ثمانية هكتارات تقريبًا، بلغ ثمنها مليونين وربع من البيزتات، وهى تضم كل الأجزاء الهامة فى مدينة الزهراء، كالمسجد، والشرفة الجنوبية الكبرى بقاعتها الوسطى، وكانت تعرف باسم دار الجند، والقاعتين الكبيرتين، إلى جانب

---

(١٢) روساريو كستيخون، فى مقالها الذى أشرنا إليه فيما سبق.

(١٣) المصدر السابق نفسه.

المجلس الغربى واكتشف عام ١٩١٢، وتكون كلها مجموعة قاعات الاستقبال الكبرى التى تطل على السطح الكبير، ويعرف باسم «السطح الممرد».

وفى هذا العام نفسه، ١٩٦٤، تمت جملة اكتشافات ممتازة، وفيها تم تنظيف مسجد الزهراء تمامًا، ونقوشه الأدبية معروفة جيدًّا، وأوردها عدد من المؤرخين(١٤).

وكان يشرف على أعمال الحفر ويوجهها المهندس الأثرى هرنانديث خمينيث، كما أن المهندس باسيليو بابون ملدونادو قام بالدراسات المعمارية، واستطاع أن يميز بين ما يتصل بمادة البناء وما يرتبط بالجانب الزخرفى، وجمع خلاصة بحثه فى دراسة موسعة ومفصلة نشرها من قريب، وزودها بالخرائط والصور والرسوم، ونشرتها إدارة الفنون الجميلة(١٥).

ويتكون المسجد على نحو ما وصف لنا من خمس بلاطات، تتجه نحو المشرق فى دقة، وله صحن ومدخل، ومنارة إلى جانبه، وقاعات على جوانب الصحن، وعين فى وسط هذا، واكتشفت وقد تهدمت كلها تماما، لاستغلال الناس كتل البناء، والمواد النافعة فيه، فى مبانيهم الحديثة، ولكن ما بقى منه سمح لنا بدراسة متعمقة له، والتعرف على أجزائه.

وكانت بلاطاته الخمس المسقوفة تتكون من ممرات ذات عقود، فوق سوارى من الرخام، واحد وردى اللون من قبرة، ويليه آخر أزرق من قرطبة، وهكذا على التوالى، وتيجان الأعمدة بدائية، تكاد أن تكون قوطية، لأنها كانت أول ما بنى من مدينة الزهراء، وألقيت أول خطبة فيه فى شهر شعبان ٣٢٩ هـ - مايو ٩٤١ م، أو أن شئت بعد أربع سنوات من بدء العمل. وبقية زخارف العقود، وأبواب الدخول، شبيهة بما عليه فى بقية أجزاء المدينة. ووجدوا فى سقيفة الصحن بقايا محروقة من حصائر من الحلفاء. وعمق البلاطات الخمس الداخلية مبلط ببلاط أحمر، ولكن بقيتها تشبه الأرض.

---

(١٤) انظر الموجز الذى قدمته روساريو كستيخون، فى الدراسة التى أشرنا إليها سابقًا، ص ٧٤ - ٩١.

(١٥) بابون ملدونادو: تقرير عن حفائر مسجد مدينة الزهراء، رقم ٥٠، من منشورات الأدارة العامة للفنون الجميلة، مدريد ١٩٦٦.

وترميم الأسوار الرئيسية تم بسرعة للاحتفاظ بالمخطط الذى تم اكتشافه، وبخاصة جدار القبلة، وكان أشدها دمارا، ونحيل كل من يرغب فى معرفة المزيد من التفاصيل عن هذه الكشوف الأثرية إلى تقرير بابون ملدونادو، وهو ذو أهمية فريدة لدراسة الفن العربى.

وفيما يتصل بالحفائر المرتبطة بمسجد الزهراء اتضحت مشكلة لم تكن حتى هذه اللحظة واضحة تماما، وهى الإشارة إلى الممرات المسقوفة التى تمتد عبر كل المدينة للخدمة الرسمية، يمر منها الخليفة وكبار حاشيته، حتى لا يظهروا علانية أكثر مما يجب، ولحمايته من تقلبات الجو.

نحن عامة بصدد قاعات قوية، ذات قباب من طابق أو اثنين، تصل بين الأبنية الرئيسية فى مدينة الزهراء، وتقوم بنفس الدور الذى يقوم به الساباط فى المسجد الجامع بقرطبة العاصمة.

ويستند الممر، أو الساباط، فى مدينة الزهراء على الجانب الجنوبى من المسجد لتبلغ نهايته المحراب، فى موقف شبيه بما عليه الحال فى المسجد الجامع، حيث يمثل الخليفه فى الجانب الاكثر ميلا نحو الغرب منه نفسه.

واكتشاف هذا الساباط، والجانب الذى يؤدى منه إلى السطح الجنوبى، بدا فيه العمل فعلا عام ١٩٦٥، ومثله فى ذلك الأسوار الوسطى بممراتها، والدعائم الكبرى التى تفصل بين الأجزاء العليا المبنية فى المدينة عن الأجزاء السفلى التى توجد فى السهل.

ولكن أعظم أعمال عام ١٩٦٥ تتمثل فى اكتشاف القاعة التى توجد فى وسط السطح القبلى، وتسمى دار الرخام، لثراء الرخام الذى استخدم فيها ووفرته، وأيضا دار الجند، وطبقا لما يذكره المؤرخون سميت كذلك لأن الخليفة كان يجلس فى أروقتها حين يشهد الاستعراضات الحربية فى السهل، ويؤكدون أيضا أنها كانت محل إقامة قائد الفرسان.

لقد ظهرت هذه القاعة الوسطى فى السطح القبلى مهدمة تماما، ربما لتميز موقعها، فهى أظهر ما فى المدينة، أو على التأكيد لهشاشة مبانيها. وفيما يبدو كانت

تتكون من ثلاث بلاطات ذات عقود، وتصنع هذه مجتمعة مربعا أو مستطيلا، تحده من واجهاته الأربع الأروقة والبرك. ويرى المهندس المعمارى هرناندیث أنها ربما كانت تشتمل فى الأصل على خمس بلاطات، ولكن فى إصلاحات تالية اقتصر فيها على ثلاث، وضموا إليها البرك.

وتحيط بها قنوات المياه والحدائق، وكان مظهر القاعة العظمى فى وسطها رائعا على التأكيد، وترميمها ليس مستحيلا، ولكنه بالغ الصعوبة إلى حد كبير.

هذه الأجزاء : الشرفة القبلية، والقاعة فى وسطها، وهذه فى وسط المدينة كانت طريق الدخول الرئيسى إلى الزهراء، وفيها كان الزوار من طبقة الخاصة يستريحون، قبل أن يبلغ خبر قدومهم الخليفة، ويستعد للمقابلة.

وبلغت الأعمال فى هذا العام، ١٩٦٦، نهايتها، وتمثلت فى الكشف عن هذه القطاعات، وترميم الجدران الكبرى التى تحمل الشرفات، والاستمرار فى ترميم زخارف القاعة الملكية، والمسجد، والممرات التى تربط بين المنشآت المختلفة بخاصة، وترميمها بالغ الصعوبة، نظرا لحالة الهدم والدمار التى وصلتنا عليها.

وأود أن أشير إلى اهتمام الدولة الاسبانية المتزايد فى ترميم مدينة الخلفاء القديمة، وطالما تغنى بأمجادها المؤرخون والشعراء، مما يجعلنا مطمئنين إلى أننا فى أعوام قليلة يمكن أن نلقى الضوء كاشفا على عناصرها الهامة التى لا تزال فى حاجة إلى الحفر والتنقيب. (المترجم)

○ ملحق رقم ٤

قصور غليانة

[انظر صفحة ٨٢ الهامش رقم ١٦٣ من هذا الكتاب]

يصف السنيور أمادور دى لوس ريوس فى كتابه «طليطلة الحالة» فى أطناب ودقة بقايا قصور غليانة هذه، ووصفها الرحالة الألمانى الدكتور فشتنرته أيضا فى كتابه «خوالد طليطلة» على النحو التالى ؛ فى وسط السهل الخصيب، إلى الشرق من المدينة، على ضفاف نهر تاجه، وفيما يسمى «بستان الملك»، توجد مزرعة، فيها نقوش تشى بأنها بقايا قصر قديم، ويطلق عليها الناس اليوم اسم «قصور غليانة»، وتتكون من برجين مرتفعين، وأسوار مهدمة تشكل مربعا، ومازال يرى فى المدخل حتى الآن عقد حدوى. وفى قبوه شعاران من الرخام الأبيض، وطابع سلاح بيت بنى قزمان النبلاء، والعقد مغطى فى الداخل بزخارف عربية سودها الدخان والهباب، ونقوش عربية أخرى كان من الصعب قراءتها. وأربع قباب يستخدمها الفلاحون اليوم اسطبلا ومطبخا وحجرة نوم، وهى كل ما بقى من القصور الضخمة التى كانت تسكنها غليانة فى عصور خلت.

وقدم لنا كل من السنيور أمادور والدكتور فشتنرته فيما يتصل بهذه الأميرة الأسطورية الشعبية الخيالية معلومات مثيرة، أرى من الواجب أن آتى بها ملخصة.

كثيرون من الشعراء، فى عدد من البلاد، صوروا الرحلة الجميلة التى قامت بها غليانة، وترنموا بحبها للامبراطور شرلمان، والعجيب فى هذه القصة المغرقة فى الرومانسية أنها لم تأخذ طريقها إلى أى من أغانينا الرومانسية، والتى ورثناها شفاها وسليمة من الأدب الشعبى، ومع ذلك فإن القصة إسبانية تماما، أو على الأقل أخذت طريقها إلى إسبانيا فى وقت مبكر جدا، لأن الأسقف لذريق يشير إلى أن شرلمان أقام أيام صباه فى طليطلة، وأنه عاد إلى فرنسا عندما علم بوفاة والده،

وكانت الأميرة غليانة، ابنة الملك خلف Galafre قد أحبت شارلمان، وبدون شك فإنها كانت تستحق شرف أن تصبح إمبراطورة فرنسا، ذلك لأن الشعراء جميعا يطرون جمالها. وأنه يفوق كل وصف، ويتجاوز ما هو بشرى، وقد وصفه بلبوينا على هذا النحو فى ملحمة «البرناردو El Bernardo»:

غليانة.. ابنة الملك خلف،
جمالها على ما تعرفون من السماء،
وخلقت من عجينة ملكية،
وهبطت لكى تثير وتشرف بها الأرض،
العنبر وتورد الصباح،
حيث تتسرب أشعة الشمس، وجواهر الثلج،
ويكتسى العالم ثوبا فضيا وينزاح الظلام،
ولك أن تقول: كله من نور وجهها وليس من الشمس.

وكان ملك وادى الحجارة، وهو مسلم عملاق، قوى وشجاع، ويدعى بردمنت Bradament، قد ذهب بعقله حب الأميرة، ولكى يزورها حفر طريقا تحت الأرض، يمتد من وادى الحجارة حتى قصور غليانة، وعرف باسم «طريق غليانة» ولكن لا هو، ولا ألف غيره، بالغوا فى اللطف والعشق استطاعوا أن أن يقنعوا الأميرة الجميلة، أو أن يخففوا من قسوتها، وأنما كانوا وسيلة لإثارة الغيرة فى الشاب شارلمان، والذى قرر أن يزيح من طريقه ذلك الخصم الكريه، وكما يقول كريستوبال لوثانو فى كتابه «ملوك طليطلة الجدد» تصارعا وجها لوجه، بقوة وفى شجاعة، ومع أن الملك المسلم كان عملاقا الا أن النصر كان إلى جانب شارلمان. لقد غلبه فى التحدى، وقطع رأسه، وقدمها هدية لغليانة، فتلقت الهدية فرحة، لشجاعة حبيبها من جانب، ولتخلصها ممن كانت تكرهه، وطبقا لرواية لوثانو نفسه، فإن الأميرة اعتنقت المسيحية، وعمدها سخيلا أسقف طليطلة، وزوجها من الملك شرلمان، وذهب الزوجان إلى فرنسا ليعتليا العرش الذى كان قد شغر من قريب بوفاة الملك بيبيتو.

وبالرغم من ملحمة البرناردو، التى ألفها بلبوينا، فإن هذه القصة الأسطورية

ألهمت لوبى دى بيجا مسرحية : «قصور غليانة»، ونصها نادر العثور عليه الآن، رغم أنها طبعت فى الجزء الثالث والعشرين من مسرحياته. وقد أورد الدكتور فشتنرته فقرة من هذه المسرحية، وأبياتا كثيرة، ومناظر ترجمها إلى الألمانية، وأيضا ألف السنيور روبى مسرحية عن «غليانة»، وجعل منها زوجة شارل مارتل وليس شرلمان.

وفى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى ألف أولبرت كيلير ملحمة ألمانية بعنوان : «كارل مينت Karl Meinet»، وتقص تفصيلا، وفى لغة شاعرة، الغراميات التى حدثت بين غليانة وشرلمان، لقد جاء هذا عندما كان صبيا إلى طليطلة، صحبة مئتين من أتباعه، هاربا من هينفريت وهودريش اللذين اغتصبا منه العرش. وأفسح هذا المجال لتتوطد صلات الحب بينه وبين الأميرة غليانة، ويسميها الشاعر غالية ابنة الملك خلف، وقتل شرلمان كلا من برومونت وكيفاس ابن أخيها، وأصبح صديقا ودودا لخلف، والذى ذهب معه إلى فرنسا ليساعده على استرداد عرشه من الذين اغتصبوه منه، ودفع المغتصبون ثمن جريمتهم فى المشنقة، وعاد خلف إلى طليطلة محملا بالهدايا، ولكن لا شارلمان على عرش فرنسا، ولا غليانة فى قصورها الفاتنة، استطاعا العيش منفصلين أحدهما عن الآخر، فترك شرلمان عرشه ومملكته وعاد إلى طليطلة متخفيا فى ثوب حاج، وهنا سنحت الفرصة ليقدم لنا المؤلف عددا من المناظر الرومانسية، وتهرب غليانة، مع وصيفتها فلورينا، صحبة شارلمان، وبعد ألف مخاطرة ومغامرة يصلون إلى باريس، حيث يعمدها الأسقف. وتتزوج غليانة من شارلمان، وتصبح أمبراطورة فرنسا وعندما كان شارلمان فى ألمانيا يقاتل السكسونيين توفيت الأمبراطورة فبكاها الامبراطور بحرارة، وطبقا للملحمة كان على الأمبراطور أن يتأسى أخيرا، وأن يتزوج للمرة الثانية من هيلدجردا دى سوابيا، وللمرة الثالثة من اللطيفة فستيرينا. (خوانباليرا)

○ ملحق رقم ٥

أيهما أشد تعصبا:[1]
الأسبان أم بقية أوربا

[انظر ص ١٢٤ الهامش رقم ٢٢ من هذا الكتاب]

يبعد عن الاعتقاد أن المسيحيين الإسبان كانوا منذ البدء أشد قسوة، وأفظع تعصبا، وأقوى عدم تسامح، عن بقية أوربا، ويمكن القول بعكس كل ما سبق، والدفاع عنه: لقد أصبح الإسبان مدفوعين بأوربا المسيحية، تستثيرهم، وتدفعهم إلى التعصب ضد المسلمين، وبالتدريج أصبحوا أشد قسوة وعدم تسامح معهم. لقد تعود الإسبان فى العصور الوسطى، مسلمين ومسيحيين، أن يعيشوا فى صداقة وطيدة، وقوانينهم وآدابهم وعلومهم وفنونهم تتبادل التأثير فيما بينها، وارتبطوا معا أكثر من مرة بوصفهم إسبانا فحسب، لمواجهة الأجانب والغزاة، سواء كانوا من المرابطين أو الموحدين، وكان للملوك المسيحيين أتباع بين الملوك المسلمين، مثل سيف الدولة ابن هود الشهير، فقد سلحه ألفونسو السادس، الشهير بالامبراطور، وجعله تابعا له. وكان هناك ملوك مسلمون فى مرسية، وإشبيلية، ونبلة، ووادى آش، يدينون بالولاء للملوك المسيحيين.

ومنذ استولى ألفونسو السادس على طليطلة حتى أيام ألفونسو العاشر الملقب بالمعالم، ازدهرت فى قشتالة ثقافة إسلامية على يد المدجنين، وازدادت أهمية وقيمة، ولعبت دورا لامعا فى علم وأدب المسيحيين، من خلال مؤلفات الملك المذكور، وآخرين من العصر نفسه أو جاءوا بعده. ويطرى السنيور فرناندیث أى جونثالث. فى الفصل العاشر من الجزء الأول، والفصل الرابع من الجزء الثانى فى مذكراته، جمهرة كبيرة من العلماء والمؤرخين والشعراء المسلمين الذين عاشوا تحت الحكم

(١) العنوان من وضعى أنا (المترجم)

المسيحى، وكانوا موضع الحماية والاحترام من ملوكنا وكبار رجالنا. وباختصار فإن كل مذكرات السنيور فرناندیث تعكس التسامح الكبير الذى أبداه المسيحيون الاسبان نحو المسلمين، وهو تسامح بدأ ينحصر شيئا فشيئا مع تقدم حرب الاسترداد، وطبقا لما أملته الحضارة المسيحية.

ودون شك أعان على التسامح القديم احترام، وحتى إعجاب، المسيحيين، بمن هم أعلى ثقافة منهم، ويجب أن يكون قد أعان على الاضطهاد التحمس للحضارة المسيحية، عندما رأى أصحابها أنفسهم فى القمة، والحضارة الاسلامية فى طريقها إلى السفح، وبالتالى موضع الاحتقار، ومع ذلك فمن الفضيلة دائما أن يُعجب المرء بالحضارة الأرقى، وأن يحترمها، وكان الأجانب الذين يجهلون الحضارة الاسلامية أشد خشونة وشراسة مع أهلها. فالصليبيون الذين جاءوا من فرنسا وألمانيا، وبلاد أخرى، إلى شبه جزيرتنا، فى مناسبات مختلفة، تميزوا دائما بشراستهم وهمجيتهم فى مواجهة المسلمين واليهود، وبخاصة أولئك الذين قدموا قبل معركة العقاب المجيدة. وتقول الحوليات الطليطلية ؛ «تحركوا من الموانى البعيدة، وجاءوا إلى طليطلة فى تلك الأيام، وفيها عاشوا، وقتلوا كثيرين من اليهود، وتسلح فرسان طليطلة، ودافعوا عن اليهود». ويقول مؤرخ عربى : «ووجد ألفونسو نفسه، وقد تخلى عنه الروم، لأنه منعهم من قتل المسلمين، وعندما تخلوا عنه تحدثوا اليه قائلين : «لقد طلبت منا المجىء لكى نستولى على المدن، والآن تمنعنا من النهب، ومن قتل المسلمين، وليس ثمة ما يدعونا لكى نبقى فى حملتك».

ولم تنجح كثيرا حملة الإثارة التى قام بها البابوات لاضطهاد المسلمين واليهود، ومنعهم من الاختلاط بالمسيحيين، وتمييزهم بملابس مخصوصة، وتعليمهم بإشارات مميزة، حتى يظهروا فى وضع شائن ومعيب، ويحركوا البغض والاحتقار. وجاء إحساس الجنس الأوربى بتفوقه على الجنس السامى فزاد من هذا الرعب، وحتى فى عصر فليب الثانى كان هناك بابا لا يزال غاضبا، ويدعو الإسبان إلى اعتبار اليهود والمسلمين نجسا، وجعل من نفسه صدى للاضطهاد الشائع، لا ضد أناس من دين آخر فحسب، وإنما ضد المسلمين الجدد، أى الذين قبلوا اعتناق

الكاثوليكية مكرهين، من اليهود أو المسلمين.

وقد لام البابا فرانسيسكو الأول الامبراطور كارلوس الخامس، لأنه يتسامح مع الموريسكيين فى ممالكه، وهو الامبراطور والملك الكاثوليكى فيما دعاه. وهكذا أدت روح التعصب التى سادت القرن، وكانت عامة فى كل أوربا، أن تمد تأثيرها إلى إسبانيا، فازدات الآلام، والاضطهادات المتوالية، حتى يمكن القول أن فيليب الثانى المتعقل، واللين، وغير المهتم، يستحق المدح لموقفه، لأنه عرف كيف يقاوم، على الرغم من ثورة الموريسكيين فى جبال البشرات، كل عوامل الإثارة المستمرة التى اضطلعت بها الأغلبية من رعاياه، ورفض أن يطرد الموريسكيين من مملكته، واحتفظ التاريخ بهذا المجد (!!) للملك التقى فيليب الثالث، الذى طرد من إسبانيا أكثر من تسع مئة ألف موريسكى، كانوا أشد رعاياه مهارة وعملا، قبل ونفّذ ما قال عنه الكاردينال ريتشليو: «النصيحة الأشد جرأة وهمجية بين كل ما يذكره تاريخ القرون السابقة». (خوان باليرا)

○ ملحق رقم ٦

الحمراء كما رآها رحالة ايطالى[1]

[انظر ص ١٦ الهامش رقم ٦٨ من هذا الكتاب]

أقدم وصف للحمراء قدمه لنا نفجيرو عام ١٥٢٦، أى بعد ٣٣ عاما من سقوطها فى يد المسيحيين، وهو بالغ الأهمية، ويجب أن نفسح له هنا مكانا، يقول :

« الحمراء تحيط بها الأسوار على هيئة قلعة، ومنفصلة عن المدينة، وتسيطر عليها كلها تقريبا، وتوجد بداخلها بيوت كثيرة، ولكن أغلب المساحة يحتله قصر كان يمتلكه ملوك غرناطة. وهو بالغ الروعة فى الحقيقة، وقد استخدموا فى بنائه أجمل أنواع الرخام، وكل المواد الأخرى من الأنواع الغالية والثمينة، ولكن هذا الرخام لا يوجد فى الجدران، وإنما على الأرض، وهناك ساحة كبيرة بالغة الروعة، واسعة وتتماشى مع الذوق الإسبانى ».

« ويحيط بها مبان، ويوجد فى جانب منها برج ظاهر جدا، يسمى قمارش. وهناك توجد بعض القاعات والحجرات رائعة الجمال، وبها شرفات أنيقة، وذات زخارف موريسكية ممتازة، وتوجد على الجدران وفى السقف. وهذه الزخارف فى جانب منها من الجير، وذات ذهب كثير، وفى جانب آخر من الذهب والعاج، وكلها فخيمة فى الحقيقة، وبخاصة سقف القاعة، الكبرى السفلى، وكل جدرانها. وأرض الساحة كلها مغطاة برخام أبيض ناصع البياض، دقيق الصنع، وألواحه عريضة جدا، وفى وسط الساحة يوجد تجويف على هيئة قناة، مملوء بالماء البارد، يجىء من نبع يجرى عبر القصر، ويدخل إلى كل مكان، حتى إلى الغرفات

---

(١) العنوان من وضعى أنا. (المترجم)

نفسها. وفى طرف هذه القناة يمتد سياج خفيف فائق الجمال، تطوقه أشجار الريحان، وتوجد أيضا بعض أشجار البرتقال».

«ومن هذه الساحة يمكن الدخول إلى أخرى أصغر من الأولى، وهى مكسوة برخام ممتاز، وحولها غرف ورواق يحيط بها. وفى هذه الساحة توجد أيضا بعض الغرف الجميلة، بالغة الطراوة صيفا، وحيدة الزخرفة نقوشا، ولكنها ليست بالغة الروعة كالبرج الذى تحدثنا عنه».

«وفى وسطها نافورة جميلة، قائمة فوق عدد من الأسود تمج الماء من أفواهها، ولهذا يطلق عليها ساحة الأسود، وهذه تحمل حوضا فوقها، وعندما يتوقف الماء من الاندفاع فى أفواهها تقدم حالة فريدة، تتمثل فى أنك إذا نطقت أو وشوشت بكلمة فى فم أحدها، بصوت مهما يكن منخفضا، على حين يضع شخص آخر أذنه فى فم أى واحد آخر منها، فإن الصوت يرن واضحا فى أى منها شئت، وتسمع أية كلمة.

«ويجب أن نذكر بين الأشياء الجميلة التى تميز بها هذا القصر بعض الحمامات التى تحت الأرض، ولما تزل تحتفظ بجمالها الفائق، وكلها مكسوة بالرخام أيضا. وهذه الحمامات تتلقى الضوء من السقف، عبر عدد من النوافذ الزجاجية الصغيرة».